وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجلفة

مقاربات

مجلة العلوم والمعرفة

مجلة دولية علمية ، ادبية ، ثقافية محكمة

العدد السابع والعشرين - المجلد الثاني-

سبتمبر 2016

الترقيم الدولي المعياري للمجلة (ر.د.م.د):I.S.S.N.2335-1756
رقم الايداع القانوني لدى المكتبة الوطنية الجزائرية :2013-4949

Scanné avec CamScanner

عبدالله الغذامي و تجربة النقد الثقافي
[عرض ونقـد]

د.عبد القادر طالب
جامعة سكيكدة

- الملخص:

يتناول هذا البحث اتجاه "النقد الثقافي" الذي عرفه الخطاب النقدي الأدبي المعاصر مرحلة ما بعد الحداثة، والذي انصبّ اهتمامه على نقد الأنساق الثقافية المضمرة بالخطابات الأدبية وغير الأدبية، ويركّز البحث على تجلياته بالخطاب النقدي العربي المعاصر، بالاشتغال على تجربة الناقد "عبد الله الغذامي"؛ كونه أول من استقدم هذا الاتجاه الجديد إلى فضاء الممارسة النقدية العربية المعاصرة.

__Résumé :__

Cette recherche porte sur le sens de la «critique culturelle» qui définit la phase critique contemporaine discours littéraire postmoderne, qui a attiré l'attention sur la critique des formats culturels des discours littéraires et non littéraires implicites, et de la recherche qui se concentre sur les manifestations du discours critique arabe contemporaine, se livrant à l'expérience de la critique, "Abdellah Algothami"; étant le premier a apporté cette nouvelle tendance à l'espace pratique de la critique arabe contemporaine.

- توطئـــة:

شهد الخطاب النقدي الأدبي في العقود الأخيرة من القرن العشرين تحولات جذرية عميقة، إذ بعد سطوة المناهج النقدية النسقية، وعلى رأسها المنهج البنيوي الذي علمنت مقولاته الظاهرة الأدبية وبالغت في تسييج النص وعزله عن محيطه وسياقاته الخارجية المتعددة، بدعوى أنّ لا أدبية للنص خارج حدود نسقه اللغوي، تبلورت مناهج نقدية حداثية (مابعد بنيوية)، تبنّت رؤى مغايرة في نقد النصّ الأدبي، منها بروز نقد قرائيّ تفاعلي تولى فيه المتلقي العالِم بخبايا النص إدارة العملية النقدية وخُوّلت إليه مسألة إنتاجيته، ثم تمخضت هذه المناهج عن تيارات نقدية أسست لمرحلة نقد ما بعد الحداثة منها توجّه نقدي حاول لملمة شتات الرؤى النقدية السابقة دون انحياز لطرف منها، أو تقيّد بإجراءات وضوابط أحدها، إذ لم يعزل النصّ عن سياقاته و لم ينظر إليه في ذاته أو يكتف بمسألة جمالياته، وإنّما أحاط النصّ بنظرة شمولية وسعى من وراء قراءاته إلى إدراك مضمراته وما يؤطّره من أنساق ثقافية متباينة، تختفي وراء ظلال أدبيته، وقد أصطلح على هذا المشروع النقدي الجديد بـــ"النقد الثقافي".

فما النقد الثقافي؟ وما هي إرهاصاته ؟ ما الجديد الذي أضافه النقد الثقافي إلى حقل الدراسات النقدية؟ ما الهدف الذي يسعى إليه النقد الثقافي؟ هل يوجد نقد ثقافي عربي؟ من النقّاد العرب الذين تبنوا هذا التوجّه النقدي؟ ما مقولاته أو أبعاده المعرفية التي يرتكز عليها في الخطاب النقدي العربي؟ هل هي ذات رؤية نقدية عربية؟ أم أنّها سليلة الخطاب النقدي الغربي؟ وإلى أيّ مدى وصل هذا النقد؛ تنظيرا ثمّ تطبيقا؟

أسئلة تنفتح على مزيد من الأسئلة، ومن الصعب على الباحث بما أوتي من قراءات حول هذه المسألة أن يجيب عنها بتوسّع وشمولية في بحث موجز بمثل بحثنا هذا، ولذلك سنسعى في هذا المقال الإلمام ببعض جوانبها، بتوضيح الرؤية أو تقريبها حول ما تطرحه، متخذين بتجربة الناقد السعودي "عبدالله الغذامي" أنموذجا قرائيا لمثل هذه الدراسة؛ كونه صاحب السبق في استقدام هذا الاتجاه النقدي إلى فضاء الخطاب النقدي العربي المعاصر.

Scanné avec CamScanner

- في ماهية النقد الثقافي:

يعدّ النقد الثقافي من أحدث التوجّهات النقدية التي أفرزتها ممارسات النقد لمرحلة ما بعد الحداثة وتحديدا بداية ثمانينيات القرن العشرين، إثر تغيّر جذري طرأ على مستوى مسار الدراسات الأدبية، كما أكد ذلك (هيليس ميللر)؛ فقد تعرّضت" لتحوّل مفاجئ وعالمي تقريبا عن النظري، بمعنى التوجه نحو اللغة كلغة، وحققت تحوّلا مماثلا نحو التاريخ والثقافة والمجتمع والسياسة والمؤسسات وظروف الطبقة والجنس والسياق الاجتماعي والقاعدة المادّية"[1]، فالمأزق الذي أوقعت فيه المناهج الشكلية والبنيوية الدراسات الأدبية؛ نتيجة نزوعها الكلّي إلى عزل النصّ الأدبي عن محيطه وحصر امتداداته الخارجية ترتّب عنه انبثاق هذا التحوّل الذي انتقل بموجبه التفكير النقدي من دراسة النصّ كمادة لغوية صرفة نحو الخطاب سواء أكان أدبيا أو غير أدبي باعتباره فضاء يكشف عن مستويات متباينة ويضمر أنساقا متعددة يضطلع النقد الثقافي بمهمّة تعريتها والكشف عنها بمعيّة تيارات نقدية مختلفة من قبيل: التاريخانية الجديدة و ما بعد الكولونيالية والنقد النسوي والمادية الثقافية، التي تبقى رغم أوجه الاختلاف المحدودة فيما بينها "جزئيات المظلة الأوسع للنقد الثقافي"[2] بتعبير عبد العزيز حمودة.

إنّ النقد الثقافي"نشاط يستدعي الثقافة بشموليتها موضوعا للبحث والتفكير والتعبير عن مواقف إزاء تطوراتها وسماتها"[3]، إنّه اتجاه نقدي معرفي يهدف رواده إلى" فك العزلة الثقافية عن النصّ وإلى توريطه في لجة الصراعات والأنساق والمؤسسات ليكتسب موقعا في خريطة العالم، ولن يتأتّى ذلك إلاّ بتقليص الاهتمام المفرط بالأدبية مقابل النبش في حفريات ما وراء الأدبية التي ترهن سلطة النص في التمثيل الثقافي والإنتاج الثقافي"[4]؛ فالنقد الثقافي يطرح مشروعا بديلا لمشروع النقد الأدبي، و تنبذ أطروحاته المعايير البلاغية الجمالية السائدة التي احتكم إليها نقد النصّ الأدبي ردحا من الزمن؛ فإذا كانت مهمّة النقد الأدبي تنحصر في الكشف عن أدبية النص وقيمه الفنية، فإنّ المهمة المخوّلة إلى النقد الثقافي هي"الانتقال بالممارسة النقدية من نقد النصوص والعناية بجمالياتها الأسلوبية والبنائية إلى نقد الأنساق المطمورة فيها أي نقد محمولاتها الثقافية وكشف مصادرها المتخفية فيها، وهذا النقد ينصرف إلى متابعة الاستهلاك الثقافي، أي كيفية تلقي الثقافة و متابعة حيلها و مواربتها"[5]، و تتحدد الغاية المرجوّة من قبل الناقد الثقافي وراء هذه المساعي كلّها في تحرير الخطاب من مبدأ الخضوع و التأسيس لفكرة "نقد ثقافة المركز ومواجهة هيمنة النسق، متوسلا بإستراتيجية تفكيكية تنزع إلى التقويض و التشظي من أجل تسليـــط الضوء على المهمّش و المنسي في الثقافتين الوطنية و الإنسانية و ردّ الإعتبار إلى القيم غير الجمالية الكامنة في أحشاء الخطاب الأدبي."[6]

- إرهاصاتٌ وتأصيلٌ للنقد الثقافي:

تُردُّ إرهاصات ميلاد النقد الثقافي كمصطلح حديث إلى الدراسات الثقافية (Cultural Studies)* التي تبلورت معالمها منذ عام(1964م) بتأسيس(ريتشارد هوغارت) لــ(مركز برمنغهام للدراسات الثقافية) والتي تركّز الاهتمام فيها على دراسة الكثير من الإنتاجات القولية والممارسات الثقافية باعتبارها ظواهر نصية يتعذّر فهمها من دون وضعها في سياق الثقافة[7] وقد مرّت هذه الدراسات بتطورات وتحولات عديدة قبل انتشار عدوى الاهتمام بالنقد الثقافي وبلوغ نضجه، فقد رافق هذه الحقبة ضروب متنوعة من التمرّد على الأنساق الشائعة في الثقافة الغربية، حيث حصلت تحولات عميقة في الثقافتين الفرنسية والألمانية والأوربية عموما طوال سبعينيات وثمانينيات ذلك القرن، قبل انتقال حساسيتها إلى الثقافة الأمريكية[8]

Scanné avec CamScanner

وفي سياق هذا الطرح يرى بعض الدارسين أن بدايات التنظير للنقد الثقافي تمتد من ميخائيل باختين إلى تودوروف و رولان بارت، و جاك دريدا، و ميشيل فوكو، و أمبرتو إيكو، فقد كان باختين على سبيل التمثيل يهدف إلى خلخلة مونولوج الخطابات الدوغمائية السائدة، في حين كان رولان بارت يسعى إلى توظيف السيميائية لنقد ثقافة اليومي المعيش الذي هيمنت عليه قيم الطبقة البرجوازية، كما عمد تودوروف إلى الكشف عن اللغات التي تقصي الآخر، و خصص أمبرتو إيكو بعض كتاباته لنقد التوجهات العنصرية في أوروبا[9]، و"يعدّ ميشيل فوكو مؤثر أوربيّ قوي في النقد الثقافي الراهن فقد حاول أن ينظر في كلّ الأشياء من العقاب إلى الجنس من خلال أوسع تنوّع ممكن للخطابات وقد تتبّع (حفريات) الموضوعات التي درسها من خلال بحث فيه الكثير من المؤرخين التقليديين ونقاد الأدب"[10].

و لا شك أنّ نقض المركزيات التقليدية كان القاسم المشترك بين هؤلاء، وجلّ هذه الأطروحات تبلورت في إطار ما عرف بتوجهات ما بعد البنيوية أو ما بعد الحداثة، و كان الطابع الغالب على جدل هذه الحقبة طابعا ثقافيا، يهدف إلى إعادة نظر في وظيفة النقد التقليدية، إذ طرقت محاوره الأبعاد الثقافية للظواهر الأدبية والاجتماعية والدينية والسياسية والإعلامية وطرح للنقاش موضوعات متعددة لها حساسيات ثقافية كالنقد النسوي وآداب الأقليات وآداب ما بعد الاستعمار[11]، وقد"كان مفهوم الثقافة أصعب ما واجهته"[12]؛ هذه الدراسات؛ فالثقافة سياق موضوعاتها، و بما أنّ الثقافة مسالكها متشعّبة وفجاجها واسعة، أو لأنها بحسب مفهوم "إدوارد تايلور": ذلك "الكلّ المعقد الذي يضمّ المعرفة والمعتقدات والفن و الأخلاق و القانون والتقاليد..."[13] فإنّه لا يمكن بأيّة حال قصر ماهيتها ودلالاتها على تيار معرفيّ بعينه دون آخر.

ويسوقنا الحديث هنا إلى الإشارة لبعضٍ من الدراسات المبكرة التي اصطبغت بتوجه ثقافيّ وتعدّ بمثابة إرهاص لهذا النقد الما بعد بنيوي، نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر: كتاب "ماثيو آرنـــولد" (الثقافة والفوضى (1869م)) ناهيك عن مقاله (مهمة النقد في الوقت الحاضر (1865م))، كتاب "تايلور" أيضا (الثقافة البدائية (1871م))، وقد وصلت الدراسات الثقافية إلى أكمل وجوه التمثّل في أشهر ما كتب "ريموند وليامز" (الثقافة والمجتمع:من عام1780م-1950م) الصادر عام(1958)...[14]

كانت هذه ومضة جدّ موجزة ومحدودة عمّا قبل ميلاد مصطلح "النقد الثقافي" بالساحة النقدية الغربية فالإعلان الرسمي عنه كان"في سنوات الثمانين من القرن العشرين (1985م) بالولايات المتحدة الأمريكية"[15] من قبل الناقد الأمريكي "فنسنت ليتش"، حين دعا إلى مشروع نقدي تحت مسمى هذا المصطلح، محددا مهمته في" تمكين النقد المعاصر من الخروج من نفق الشكلانية والنقد الشكلاني الذي حصر الممارسات النقدية داخل إطار الأدب كما تفهمه المؤسسات الأكاديمية الرسمية، وبالتالي تمكين النقاد من تناول مختلف أوجه الثقافة ولا سيما تلك التي يهملها عادة النقد الأدبي"[16]، وبذلك فقد توضّحت الخطوط العريضة للنقد الثقافي و تبلورت الرؤية المنهجية له مع تنظيرات (ليتش) لا سيما مع مؤلّفه (النقد الثقافي: نظرية الأدب لــ"مابعد الحداثة")، و يقوم النقد الثقافي عند (ليتش) على ثلاث خصائص:[17]

1- يتجاوز النقد الثقافي التصنيف المؤسساتي للنص الجمالي، إلى ما هو غير جمالي في عرف المؤسسة سواء كان خطابا أو ظاهرة، وهو بذلك ينفتح على مجال عريض من الاهتمامات.

2- النقد الثقافي لا يشكّل قطيعة مع أيٍّ من التصورات و المناهج، إنّه يقيم حوارا معها، كما يستفيد من مناهج التحليل العرفية من مثل تأويل النصوص ودراسة الخلفية التاريخية والتحليل النفسي بالتركيز دوما على الأبعاد الثقافية في نقد هذه النصوص.

Scanné avec CamScanner

3- يركّز النقد الثقافي الما بعد بنيوي على أنظمة الخطاب وأنظمة الإفصاح النصوصي التي تحيل إلى مفاتيح التشريح النصوصي كما عند "بارت" وحفريات المعرفة عند "فوكو" ومفهوم (الهيمنة)* عند "غرامشي" وأطروحات "دريدا"** التي يعتبرها "ليش" بمثابة البرتوكول للنقد الثقافي، لا سيما مفاهيم التفكيكية، من قبيل: التشريح، التشتيت، التقويض...

تعد هذه الخصائص إذاً بمثابة المقولات النقدية و المرتكزات المعرفية في تحليل الخطابات بآليات النقد الثقافي، ولا شكّ أنّ مضامين هذه الخصائص"مشتقة من صلب الجدل الذي اندلع في الثقافة الأوربية اعتبارا من النصف الثاني من الستينيات"[18]، وتتداخل مع سمات الدراسات الثقافية لتلك الحقبة.

– عبدالله الغذامي وتجربة النقد الثقافي:

لئن كان للباحث الأمريكي "فنسنت ليتش" الفضل في التأسيس لمصطلح النقد الثقافي عند الغرب فإنّ للناقد السعودي "عبدالله الغذامي" السبق في استقدام هذا المصطلح إلى الخطاب النقدي العربي تنظيرا وتطبيقا، وقد حظي هذا التوجه النقدي منه باهتمام كبير من لدن النقّاد والباحثين العرب، فقد كان "الغذامي" أكثر النقاد العرب افتتانا بفرضيات النقد الثقافي، و يعدّ مشروعه الأكثر جراءةً و جدلاً من حيث الطرح والتناول، كونه قد"أبان عن تمثّل عميق لِكُنْه النظرية وذاكرة المصطلح***مما أهّله لخوض غمار التجريب والتأصيل، علما أنّ تطبيقات هذا النقد...لا تزال محتشمة ومشوبة بوابل من الإسقاط والتأويلية المغرضة وتغليب الرؤية الأحادية على التحليل العقلاني الموضوعي الذي يرصد مختلف العوامل والأسباب المنتجة للظاهرة الأدبية"[19]، وانطلاقا من هذه المؤشرات وغيرها تتخذ ورقتنا البحثية من تنظيرات (الغذامي) نموذجا قرائيا لمتنها في خضمّ الحديث عن النقد الثقافي وتجلّياته بالخطاب النقدي العربي المعاصر، ولنا أن نثير في هذا السياق جملة تساؤلات أهمّها:

ما السرّ في افتتان "الغذامي" بالنقد الثقافي وتبنيه إجــراء نقديــا؟ هل مردّ ذلك لقصور في النقد الأدبي أم أنّ النقد الثقافي– بنظره– الأكثر إحاطة بالظاهرة الأدبية والأقدر تمثيلا لها ؟ وإنْ اعتقدنا ذلك فما موقع النقد الأدبي من خريطة النقد الثقافي؟ هل يلغي النقد الثقافي دور النقد الأدبي في تناوله للظاهرة الأدبية أم أنه يحتفظ بأطروحاته تطعيما لمقولاته ؟ هل قدّم الغذامي جديدا أو أجرى تعديلا على فرضيات النــقد الثقافي مُراعاةً لخصوصيات النص العربي؟ أم أنّه أبقى عليها و تبنّاها منهجا تسليما بما أقرّته الثقافة التي أنتجت هذا النقد، والخطاب الذي أفرزه؟

رغم الفخاخ والأحابيل التي تحفّ الإجابة عن هذه الأسئلة، بيد أنّ القارئ لمؤلف "الغذامي" (النقد الثقافي "قراءة في الأنساق الثقافية العربية" الصادر عام(2000))، يدرك جملة من الآراء والمواقف ويقف عند مؤشّرات نصّية صريحة، توضّح مقاصد الناقد في تبنّي هذا التوجّه النقدي منهجاً في مقاربة النصّ الأدبي والنصّ الشعري العربي منه بخاصة و في ذلك إفصاح يجيب عن الأسئلة المطروحة سلفا، هذا بغضّ النظر عمّا سوّق له الناقد من قضايا بمؤلّفات سبقت كتابه سالف الذكر، كانت مضامينها إرهاصَ تَبَنٍ لهذا الاتجاه النقدي من قبل الغذامي، نذكر من هذه المؤلفات: (الخطيئة والتكفير(1985م))، (القصيدة والنص المضاد (1994م))،(ثقافة الوهم (1998م))، (تأنيث القصيدة والقارئ المختلف (1999م)).

قبل الحديث عن آراء و أطروحات الغذامي من منطلق النقد الثقافي، لا بد من تأكيد فكرة مؤدّاها أنّ النقد العربي الحديث والمعاصر يبقى بكلّ أطواره ومراحله وبمختلف مشاربه، يستمدّ رؤيته المنهجية وآلياته الإجرائية في مقاربة النصّ مما انبثق عن الخطاب النقدي الغربي، بشتى مناهجه وتياراته، ولذا فإنّ المشروع الثقافي الذي يتبنّاه "الغذامي" خاصّة وأتباع

Scanné avec CamScanner

هذا التوجه من النقاد العرب بعده عامّة "يمثل افتتانا جديدا بمشروع غربي تخطته الأحداث داخل الثقافة أو الثقافات التي أنتجته"[20]، و طال غيرها.

إنّ البحث في ماهية النقد الثقافي وتبيّن أبعاده عند "عبدالله الغذامي" يفضي بنا إلى المفهوم والأبعاد ذاتها التي نادى بها رواده و دُعاته، وعلى رأسهم الناقد الأمريكي (ليتش)، فإذا كان النقد الثقافي يتأسس عند الأخير على تجاوز الفهم الرسمي الذي تشيعه المؤسسات للنصوص الجمالية، فيتّسع لما هو خارج مجال اهتمامها؛- إذ لا يقصر مجال دراسات النقد الثقافي على الأدب المعتمد فحسب، وإنّما تتعدى ذلك إلى غير المعتمد في عرف المؤسسة سواء كان خطابا أو ظاهرة، كخطوة تمكّن النقاد من تناول مختلف أوجه الثقافة التي يهملها عادة النقد الأدبي-، فإنّ ما نلمسه بطرح (الغذامي) لمشروع النقد الثقافي بالمشهد النقدي العربي ينطلق من الفكرة نفسها ويؤسس لها، إذ يعرّفه بالقول: هو" فرع من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول الألسنية معنيٌ بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، ما هو غير رسمي وغير مؤسساتي وما هو كذلك سواء بسواء... وهو لذا معني بكشف لا الجمالي كما شأن النقد الأدبي، وإنما همه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي الجمالي، فكما أن لدينا نظريات في الجماليات فإن المطلوب إيجاد نظريات في القبحيات لا بمعنى عن جماليات القبح، مما هو إعادة صياغة وإعادة تكريس للمعهود البلاغي في تدشين الجمالي وتعزيزه وإنما المقصود بنظرية القبحيات هو كشف حركة الأنساق وفعلها المضاد للوعي وللحس النقدي"[21]

يتبيّن من هذا الطرح أن الغذامي ناقم على وضعية النقد الأدبي ويبدي امتعاضا شديدا من التناول البلاغي الجمالي للأدب الرسمي، فالنقد الأدبي بهذا التوجّه غير مؤهّل لكشف ما أسماه الغذامي بـ"الخلل الثقافي"" لأنه قد"أوقع نفسه وأوقعنا في حالة من العمى الثقافي التام عن العيوب النسقية المختبئة من تحت عباءة الجمالي وظلّت العيوب النسقية متوسلة بالجمالي الشعري والبلاغي، حتى صارت نموذجا سلوكيا يتحكّم فينا ذهنيا وعمليا وحتى صارت نماذجنا الراقية بلاغيا هي مصادر الخلل النسقي."[22]

وليؤكّد الغذامي فرضيات طرحه ويثبت الدعوى التي أقامها بالحجة والبرهان، فإنّه عمد إلى استنطاق العيوب النسقية في الذات العربية المتشعرنة – حسبه- بفعل ديوان العرب، ذلك المنجز الشعري الذي اتّهم النقد الأدبي بالتقصير في مقاربته لمّا تناوله من حيّزه البلاغي والجمالي، وأهمل نسقه الثقافي المشبع بالواقع والتاريخ والأيديولوجيا، والذي كثيرا ما استثمره الحاكم العربي في تكريس قيم الفحولة والاستبداد والهيمنة، وقد سوّغ الغذامي لخوض مهمته واثبات أحكامه بوابل من الأسئلة، العميقة والجريئة، مثل:

- هل الحداثة العربية حداثة رجعية...؟

- هل جنى الشعر العربي على الشخصية العربية...؟

- هل هناك علاقة بين اختراع (الفحل الشعري) و(صناعة الطاغية)...؟

- هل في ديوان العرب أشياء أخرى غير الجماليات التي وقفنا عليها...؟

- هل هناك أنساق ثقافية تسربت من الشعر وبالشعر لتؤسس لسلوك غير إنساني وغير ديمقراطي، وكانت فكرة الفحل وفكرة النسق الشعري وراء ترسيخها، ومن ثمّ كانت الثقافة – بما إنّ أهمّ ما فيها هو الشعر- وراء شعرنة الذات و شعرنة القيم...؟[23]

- هل في ثقافتنا علّة أو علل نسقية تجعلها خطابا منافقا، ومزيّفا وغير حقيقي وغير عقلاني...؟

وهل الشعراء مسؤولون عن ذلك...؟

- هل صورة (الأنا) الطاغية صيغة متجذّرة وأصيلة أم أنها اختراع شعري تسرّب إلى سائر الخطابات والسلوكيات...؟

ثمّ يبادر الغذامي إلى القول مؤكّدا:

الواقع أننا لا نواجه سؤالا حاسما، بل إنّ السؤال يتجه إلى النسق الثقافي كلّه، وهو نسق كان الشعر ومازال هو الفاعل الأخطر في تكوينه أولاً و في ديمومته ثانيا.[24]

بعدها يخوض الناقد بموجب هذه الأسئلة غمار القراءة التطبيقية، ساعيا من خلالها إلى كشف العيوب النسقية بالشخصية العربية الشعرنة، بدءا من عمرو بن كلثوم والنابغة، فالمتنبي وأبي تمام، إلى نزار وأدونيس، فلقد طالت قراءاته مدوّنة شعرية شاسعة، امتدت من الشعر الجاهلي إلى العصر الحديث وتمخضت هذه القراءات عن أحكام كانت حاسمة وحريّة بتلك حركة أسئلة الغذامي أو أكثر...

بيد أنّ السؤال المطروح هنا، هل كانت هذه المهمّة التي حمل الغذامي لواءها- وهي لا شك مهمة صعبة، شائكة المسالك، ثقيلة العبء- مكتفية بمنطق الرغبة والطموح في الإنجاز فحسب، أم أنّها كانت مهمّة ممنهجة تستند إلى أداة ونظرية نقدية تثبت علميتها وموضوعيتها وتصرفها عن شطحات القول؟

بعد أنّ روّج الغذامي إلى أنّ أسباب تغييب العيوب النسقية بالثقافة العربية تكمن في البلاغة العربية التي احتكرت بنظره تفسير النص، مما جعلها"علما استبداديا وجعلها أيديولوجية ذهنية تغلق وتهيمن"[25] وكان سبب ذلك أيضا قصور النقد الأدبي ومحدودية تناوله للخطاب الأدبي، يأتي ليبشّر- في رحاب ندوة عن الشعر عُقدَت بتونس بتاريخ الثاني والعشرين من شهر سبتمبر عام(1997م)- بـ(موت النقد الأدبي) وإحلال النقد الثقافي محله،[26] مستدركا بالقول:"ليس القصد هو إلغاء المنجز النقدي الأدبي، وإنّما الهدف هو تحويل الأداة النقدية من أداة في قراءة الجمالي الخالص وتبريره (وتسويقه) بغضّ النظر عن عيوبه النسقية إلى أداة في نقد الخطاب وكشف أنساقه"[27] الثقافية، وقد فصّل (الغذامي) الحديث في مسألة هذه الأداة النقدية بالفصل الثاني من مؤلّفه (النقد الثقافي) الذي وسمه بـ:النقد الثقافي/ النظرية والمنهج.

يباشر الغذامي التأسيس لنظريته النقدية الثقافية في نقد الخطاب وتعرية أنساقه من منطلق تحرير النقد مسبقا وذلك مرهون لديه بتحرير الخطاب الأدبي من قيد المؤسسة، فالنقد برأيه"موصوف بأنه أدبي، مثلما أنّ النظرية تقيّد دائما بصفة الأدبية، والأدبية هنا هي المعنى المؤسساتي لهذا المصطلح، من هنا لا بد أنّ نخلّص ما هو أدبي من حده المؤسساتي"[28]، ويضيف الغذامي مؤكدا في السياق ذاته على الوظيفة الشمولية لهذه النظرية النقدية الجديدة، إذ تطال اهتماماتها مختلف الخطابات"النسية والمنفية بعيدا عن مملكة الأدب كأنواع السرد وأنظمة التعبير الأخرى غير التقليدية وغير المؤسساتية...فكلّ ما هو دالّ فهو لغة و خطاب تعبيري سواء كان حركة أو فعلا أو هيئة أو نصّا، كلّ ذلك أنظمة خطاب، ولذلك فلا وجه للتمييز بين خطاب راقٍ وآخر غير راقٍ خاصّة وأننا نلاحظ أنّ غير المؤسساتي هو الأكثر تأثيرا وفعلا في الناس...كالنكتة والأغنية والإشاعة...وعلينا ألاّ نجنح إلى إنكار أدبية هذه الأنماط التعبيرية إذ أنّها مكتنزة بالطاقات المجازية والكنائية والترميزية، وتتحرّك ضمن أنساق عميقة وخطيرة"[29]، قد يصعب تقصّيها.

وفي سبيل وصول الغذامي إلى تجسيد هذا الطرح التحويلي للنظرية النقدية (من الأدبي إلى الثقافي) يعمد وفق اصطلاحه إلى عمليات إجرائية، هي كالآتي:[30]-

1- النقلة الاصطلاحية: وهي أهم عملية يخوضها الغذامي وأصعبها إجراءً في آن واحد، كونها تشمل ستة أساسيات اصطلاحية تؤسس قاعدة المشروع النظري والمنهجي للغذامي، وهي:-

Scanné avec CamScanner

1-1/ الوظيفة النسقية: لئن كان (رومان جاكبسون) قد سعى لتعزيز أدبية النصّ اللغوي بوضع ستة عناصر للرسالة وفق النموذج الاتصالي (المرسل- المرسل إليه – الرسالة – الشفرة – أداة الاتصال) فإنّ الغذامي أضاف لها عنصرا سابعا هو (العنصر النسقي) ليتيح للرسالة مجالا آخر بأن تفسّر نسقياً وهذا الإجراء تضاف لوظائف اللغة الست (التعبيرية- المرجعية- المعجمية- التنبيهية- الجمالية) وظيفة سابعة (الوظيفة النسقية)، و تمثّل ذلك بحسب الغذامي مبدأ أساسيا من مبادئ النقد الثقافي.

1-2/ المجاز والمجاز الكلّي: ويهدف الغذامي هذا الإجراء إلى تجاوز المفهوم البلاغي المجازي للمجاز إلى مفهوم ثقافي له، ويخرج من مجاله الذي ارتبط في البلاغة العربية بالاستعمال المفرد للفظة المفردة أو الجملة، إلى مجال يشمل الخطاب ويهيئه لاستعمال نقدي أكثر وعيا بالفعل النسقي وتعقيداته.

1-3/ التورية الثقافية: يعمد الغذامي في هذا الإجراء إلى استعارة مصطلح التورية من علم البلاغة وتحويله إلى الحقل الثقافي، مستفيدا من خاصيّة الازدواج الدلالي فيها "بين معنيين بعيد وقريب" حسب المفهوم البلاغي لها، بيد أن الجديد في إجراء التورية الثقافية لا يقوم الازدواج الدلالي فيها بين معنيين وإنّما بين بعدين دلاليين في الخطاب، أحدهما عميق و مضمر، هو بعد نسقي ثقافي أكثر فاعلية وتأثيرا من البعد الوعيي، كونه ينتظم مجاميع من الخطابات والسلوكيات مثلما ينتظم الذوات الفاعلة والمنفعلة.

1-4/ الدلالة النسقية: إذا كان النقد الأدبي يميّز في النصّ بين نوعين من الدلالة: الدلالة الصريحة والدلالة الضمنية، وكلّما زاد إنتاج النصّ للدلالة الثانية إزداد أدبية بمنظور النقد الأدبي، فإنّ إجراء الغذامي يقترح بحقل النقد الثقافي (الدلالة النسقية)، فيصبح للخطاب حينئذ ثلاثة أنواع من الدلالة: الدلالة الصريحة وظيفتها نفعية توصيلية، والدلالة الضمنية وظيفتها أدبية جمالية، والدلالة النسقية وظيفتها الكشف عن الفعل النسقي من داخل الخطابات.

1-5/ الجملة الثقافية: ويستمد هذا المصطلح وجوده من مصطلح الدلالة النسقية، فالجملة الثقافية عند عبدالله الغذامي تتولّد عن الفعل النسقي في المضمر الدلالي للوظيفة النسقية في اللغة، وهي بذلك المقابل النوعي للجملتين النحوية والأدبية اللتين تتولدان عن الدلالة الصريحة والدلالة الأدبية.

1-6/ المؤلف المزدوج: ويعني الغذامي بذلك أنّنا ننتج ونقرأ مؤلّفين أحدهما المؤلّف المعهود، والآخر المؤلّف المضمر (النسقي)، وهو مؤلّف الثقافة، فالمؤلّف الأول هو ناتج ثقافي مصنوع بصبغة ثقافية أولا، ثم إنّ خطابه يمرر من داخله أشياء هي ليست في وعي المؤلّف ولا في وعي الرعية الثقافية، وهذه الأشياء المضمرة تعطي دلالات تتناقض مع معطيات الخطاب سواء ما يقصده المؤلّف أو ما هو متروك لاستنتاجات القارئ، وهذا التناقض مع معطيات الخطاب -حسب الغذامي- شرط في الفعل النقدي الثقافي.

2- في مفهوم النسق (الثقافي):

يعدّ النسق مفهوما مركزيا في مشروع النقد الثقافي لدى الغذامي، وذلك ما لمسناه بمفاهيم الإجراءات الأولى التي وقفنا عندها سابقا في إطار عملية تحويله للأداة النقدية من الأدبي إلى الثقافي.

فما المقصود بـ(النسق) لدى الغذامي؟ ما هي وظيفته؟ وما يميزه عن سائر الأنساق؟

نُعت النسق بأنّه (النظام/System) تارة وأنّه (البنية/Structure) تارة أخرى، بيد أنّ الغذامي لم يأخذ بهذين الاصطلاحين لتحديد ماهية النسق، كما أنّه لم يعترض عليهما أو يلغهما، وإنّما اقترح للنسق مشروعه مفهوما خاصّا حدّده بالوظيفة التي يضطلع بها في النقد الثقافي، يقول الغذامي:

Scanné avec CamScanner

"يتحدد النسق عبر وظيفته وليس عبر وجوده المجرد والوظيفة النسقية لا تحدث إلاّ في وضع محدد ومقيد"[31]، وهنا يكشف الغذامي عن شروط تتحقق بها هذه الوظيفة النسقية، ومن ثمّ النقد الثقافي، هي[32]:

- أن يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمر.
- أن يكون النسق المضمر مناقضا للنسق الظاهر وذلك في نصّ واحد، أو ما هو في حكم النصّ الواحد.
- يشترط في النصّ أن يكون جماليا، ليس بالمفهوم المؤسساتي وإنّما بمفهوم الرعيّة الثقافية، بوصف الجمالية هي أخطر حيل الثقافة لتمرير أنساقها وإدامتها. وأمر كشف هذه الحيل من مشروع النقد الثقافي.
- يشترط في النصّ أن يكون جماهيريا، و يحظى بمقروئية عريضة، لإدراك ما للأنساق من فعـــل عمومي ضارب في الذهن الاجتماعي والثقافي.

ويساوي الغذامي في هذه الشروط بين النص بوصفه (نصّا أدبيا وجماليا) وبوصفه (حادثة ثقافية) أيضا، أما ما يُستبعد من النصوص، فــ"التي لا تتوفر فيها الدلالة النسقية"[33] المخبوءة تحت الأقنعة.

- واستنادا لما سبق يفضي الغذامي إلى تحديد مواصفات (النسق الثقافي)[34]:
- النسق دلالة مضمرة، هي ليست مصنوعة من مؤلّف ولكنّها منغرسة بالخطاب مؤلفتها الثقافة ومستهلكوها جماهير اللغة من كتّاب وقرّاء.
- النسق ذو طبيعة سردية، يتحرك في حبكة متقنة، ولذا فهو خفي ومضمر دائما، ويستخدم أقنعة كثيرة وأهمّها قناع الجمالية اللغوية وعبر البلاغة وجمالياتها تمر الأنساق آمنة مطمئنة من تحت المظلّة الوارفة.
- الأنساق الثقافية، هي أنساق تاريخية أزلية وراسخة ولها الغلبة دائــــما، وعلامتها هي اندفاع الجمهور إلى استهلاك المنتوج الثقافي المنطوي على هذا النوع من الأنساق، وتلك علامة أيضا للتحرّك في البحث عن هذه الأنساق وكشفها.

3- في وظيفة النقد الثقافي:

بعد أنّ حدد الغذامي مفهوم النسق الثقافي، وبيّن شروط الوظيفة النسقية ومواصفاتها، انتقل إلى تبيان وظيفة النقد الثقافي، التي حرص على انتقالها من مجال اشتغال النقد الأدبي الذي عكف على نقد النصوص الأدبية بالوقوف على جمالياتها البنائية والأسلوبية إلى مجال مغاير تماما، يشتغل على كشف الأنساق الثقافية المضمرة بالخطابات؛ إلى"نظرية في نقد المستهلك الثقافي، وليست في نقد الثقافة هكذا بإطلاق، أو مجرّد دراستها ورصد تجلياتها وظواهرها"[35]، وإنّما بمتابعة وكشف حيلها النسقية "التي تتوسّل بها إلى تعزيز قيمها الدلالية"[36]، والتي من أبرز مظاهرها – في تصوّر- (الغذامي)"تغييب العقل وتغليب الوجدان، وهذه[بنظره] أخطر الحيل البلاغية والشعرية، [والتي] جرى عبرها تمرير أشياء كثيرة لمصلحة التفكير اللاعقلاني في ثقافتنا، وفي تغليب الجانب الانفعالي العاطفي..."[37]

كانت هذه أهم العمليات الإجرائية التي عمد إليها (عبدالله الغذامي)، تأسيسا لنظريته الخاصة بالنقد الثقافي؛ موضحا مرتكزاتها المعرفية وآلياتها المنهجية، ثمّ سعى بموجبها إلى الاشتغال على نماذج نصّية شعرية متنوّعة من ديوان العرب، سنقف في هذا السياق عند قراءتين نموذجيتين، إبرازا لتجلّيات الرؤية النقدية الثقافية وتوجهاتها بمقاربات الناقد(عبدالله الغذامي):

1- القراءة النموذجية الأولى [المتنبي النسقي/ اختراع الفحل]:

من شخصيات الشعر العربي القديم التي حظيت بقراءة نسقية ثقافية من قبل (عبدالله الغذامي) شخصية (أبي الطيّب المتنبي) كونها"تحتلّ-[برأيه]- الصدارة في الخطاب النسقي"[38]؛ بل يذهب الناقد إلى التأكيد أن سبب إعجابنا المفرط بالمتنبي

Scanné avec CamScanner

الشاعر مرده "استجابة نسقية غير واعية منّا إذ أننا واقعون تحت تأثير النسق الذي يحرّك ذائقتنا ويحدد خياراتنا مثلما حددت خيارات أبي تمام في الحماسة، ومثلما وجدنا أنفسنا نطرب لشعر نزار قباني مع ما فيه من العيوب النسقية."[39]

ومن أبرز قصائد المتنبي التي وقف عندها الغذامي تدعيما لرأيه وبرهنة على فكرته، قصيدة (واحر قلباه) التي قالها في مدح (سيف الدولة)، يجدها الغذامي أنّها تنبني على سلسلة من الأنساق المضمرة وراء أقنعة وحيل إبداع الشاعر الجمالية البلاغية وتتمظهر هذه الأنساق في أربع دلالات، نقتصر في هذا المقام على دلالتين منها فقط، هما:

أ- التعريض المتضمّن للإستهزاء:[40]

ونقف عند هذه الدلالة النسقية من خلال بيتين شعريين من جملة أبيات أتى بها الغذامي من قصيدة المتنبي للاستدلال.

يقول المتنبي:

شرّ البلاد مكان لا صديق به ... وشرّ ما يكسب الإنسان ما يصم

وشرّ ما قنصته راحتي قنص ... شهب البزاة سواء فيه و الرخــم

يرى عبدالله الغذامي بالبيت الشعري الأوّل شتم من المتنبي لمصر وأهلها نظرا لغضبه من حاكمها (سيف الدولة)، فهو يصف بلد الممدوح بأنّها شرّ البلاد، وذلك برأي الغذامي تكرار لمعنى نسقيّ قد لمسناه بشعر جرير لّما هدد بني حنيفة بأن يردعوا خصمه الحنفي الذي وصفه بالسفاهة، وإلاّ سيمحق اليمامة حتى يجعلها لا تواري أرنبا، وهنا يستحضر الناقد بيت جرير القائل فيه:

إذا غضبت عليك بنو تميم ... رأيت الناس كلّهم غضابا

ويستطرد الناقد الحديث مؤكدا تواتر هذا النسق الفحولي بالخطاب الإعلامي "إذ بمجرّد ما يغضب زعيم ما على آخر تتوالى اللعنات على بلد الآخر وقومه وتاريخهم، وكلّ ذلك لغضبة صارت تسمى في ثقافتنا بالغضبة المضرية، وتقال بشيء من الفخر النسقي البالغ، ولا يسلم الخطاب العقلاني من هذه السمة النسقية، بل نرى أمثلة تستعيد النموذج وتتمثّل فعليا بأبيات جرير"[41].

هذا بالنسبة للبيت الأوّل، أما عن البيت الثاني للمتنبي، فيرى الغذامي أن الشاعر ينظر إلى ممدوحه بشيء من الازدراء لّما يجعله "صيدا رخيصا تتساوى فيه شهب البزاة من النسور الكواسر مع طيور الرخّ الدنيئة، وهو يجعل القنص دنيئا، وتلك هي حال المدائحيات النسقية في قياسها النظري وفي تصوراتها المتعالية حتى على من تلجأ إليه، فالشحاذ والمشحوذ منه يندمجان في خطاب استخفافي تبتذل فيه كل السلوكية والجمالية، وإنّ بدا جماليا من حيث شكله الخارجي."[42]

ب-اعتداد الذات بذاتيتها [التعالي]:[43]

وهي دلالة نسقية يؤكّد (الغذامي) أن الخطاب الشعري العربي ما فتئ "يعززها في كبرياء منقطعة النظير من حيث تواترها وانتظامها وتماسكها كخطاب قار و مترسّخ"[44] وبهذا المعنى النسقي نقرأ للمتنبي:

أنا الذي نظــر الأعمى إلى أدبــي ... وأسمعت كلماتــي من بــه صمم

فالخيل و الليل والبيــــداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي ... أنا الثريا وذان الشيب والهــــرم

فهذه الأبيات تمرر بمنظور (الغذامي) نسقية الأنا الفحولية "دون نقد أو مساءلة، منذ عمرو بن كلثوم إلى جرير وإلى المتنبي وحتى زمننا هذا لدى نزار قباني و أدونيس، على الرغم من إبداعية الجميع وجمالياتهم و حداثية بعضهم، غير أن النسق

Scanné avec CamScanner

[يضيف الناقد] أقوى وأرسخ ولذا ظلّ يتجلى في نسخ متعددة ويؤسس لنشوء الطاغية ويزرع الأرض الملائمة لهذا النشوء"[45]، والتحقق الفعلي له بالواقع.

2- القراءة النموذجية الثانية [صدام حسين: صناعة الطاغية/ وعودة الفحل]:

إنّ صورة الفحل الشعري التي مثّلنا لها حسب ما ورد بمؤلّف (الغذامي) بشخصية (المتنبي) آنفا، لم تقتصر على الذات الشاعرة، وإنّما تجسّد حضورها مع ذوات أخرى، طالتها سمات النسق الثقافي ذاته الذي حكم الذات السابقة؛ فالفحل الذي تشكّل شعريا- كما يؤكّد عبدالله الغذامي-:"تحوّل ليكون فحلا ثقافيا يتكرر في كافة الخطابات والسلوكيات الاجتماعية والثقافية والسياسية، وما ذاك إلاّ لأن الشعر في الأصل هو علمنا وديواننا وما يحدث فيه يصبغ شخصيتنا ويؤثر في تكوينها وتوجيه سلوكها، وسيكون مسؤولا عن سماتنا الشخصية، بمثل ما هو مستودع ثقافي لهذه السمات، ومرور ذلك من دون نقد هو ما جعل الشعرية علّة ثقافية تتحكم فينا من دون مساءلة أو مواجهة"[46] ويستطرد (عبدالله الغذامي) القول في السياق ذاته" وكل القيم التي اصطنعها الشعر تحولت لتكون قيما للذات العربية الثقافية ولمنظومة السلوك الاجتماعي العربي، و لقد تشعرنت الذات و تشعرنت القيم معها."[47]

ومن الشخصيات العربية العسكرية والسياسية التي تولّت زمام الحكم والسلطة قبل رحيلها، المحملة بهذه القيم المتشعرنة حسب الغذامي، والتي خصّها بحديثه في هذا السياق؛ شخصية الرئيس العراقي السابق والراحل(صدام حسين)، لما لمسه فيها من حضور لسمات الأنا الشعرية الفحولية وتصرّفات الذات الطاغية المستبدّة، التي كان مطمحها التفرّد والتعالي وتهميش الآخر وإلغائه، وتلك برأي الغذامي"هي الدلالات الشعرية التي نجدها في شعرنا منذ عمرو بن كلثوم إلى المتنبي إلى نزار قباني"[48].

ويذهب الغذامي إلى القول تأكيدا:"لو استدعينا صفات الأنا الشعرية لوجدناها هي بالتحديد ما يصف ويحدد صفات صدام حسين، وهذه الأنا المتضخمة الفحولية لا تقوم إلاّ عبر التفرّد والمطلق بإلغاء الآخر وبتعاليها الكوني بكونها هي الأصح والأصدق حكما ورأيا... تشعر بما لا يشعر غيرها وترى ما لا يرون والعالم محتاج إليها لأنها هي المنقذ الكوني ولا يستقر وجودها إلاّ بسحق الخصم، وهي المفرد الذي لا صوت سواه"[49]، ومن ثمّ؛ فإنّ تفرّد شخصية (صدام حسين) بهذه السمات وتلوّنها بهذه الصفات هي بمثابة النموذج الواقعي التطابقي مع المجاز الشعري الفحولي بتصوّر(الغذامي)؛ إذ مثلما يتنمذج الشاعر بسمات التفرد والتوحد كشرط لكونه فحلا؛ فإن الزعيم الفحل، الممثل هنا بشخصية (صدام حسين) لابد أن يكون الأوحد والأفضل والأمثل، الذي يرى العالم في نفسه وفي ذاته دون اعتبار لوجود غيره، وذلك برأي (الغذامي) ترجمة حرفية لقيم نسقية قد نلمسها تمثيلا بأبيات من قصيدة للشاعر(عمرو بن كلثوم):[50]

لنا الدنيا و من أمسى عليـــها ... نبطش حين نبطش قادرينا
بغاة ظالمين و مـــا ظُلمنـــا ... ولكنا سنبـــــدأ ظالمينا
ملأنا البرّ حتى ضـــاق عنّـــا ... وماء البحر نملـــؤه سفينا
إذا بلغ الرضيع لنا فطامـــــا ... تخرّ له الجبابـــرة ساجدينا
ونشرب إن وردنا الماء صفوا ... ويشرب غيرنا كدرا وطينا
وترانـــا بارزين و كل حــــيّ ... قد اتخـــذوا مخافتنا قرينا
ونحن الحاكمون إذا أطعنـــــا ... ونحن العازمون إذا عصينا

- <u>النقد الثقافي في ميزان النقد:</u>

Scanné avec CamScanner

يمثل نسقا ثقافيا رجعيا سلبيا، قام بشعرنة الذات العربية، فأنتج بذلك شخصية الشحاذ والمنافق والطماع والفحل (الفحولية)، وأنّ ديمومة هذا النسق كان بفعل الجمالية البلاغية التي ساهمت إلى حدّ بعيد في تسويغه وضمان تمريره إلى مجالات أخرى"[62]، فيه من الزلل الكبير والتجني الخطير على الشعر العربي ما لا يخفى مكانه، فمن المستحيل أن يقرّ المتلقي الواعي والمثقف بهذه الأحكام المتسرعة دون تروٍّ وتمحيص، لاسيما إذا أدرك أن أحكام الغذامي تفرزها الأسلوب (الانتقائي) كما يصفه الناقد (عبدالله إبراهيم) فوقع بذلك في مزلق تحديد الأدلة بانتقاء جزئيات من نصوص شعرية لشعراء من عصور مختلفة، "يضخمها ويجعل منها قانونا متحكما في النتائج التي يروم الوصول إليها"[63]، وهذا مما انتهجه الغذامي في كتابه مما هدم مسعاه وانتقص من علميّة منهجه، إذ ليس الحكمة في العثور على أدلة متناثرة... إنما الحكمة في تلازم الأدلة وتواترها وهيمنتها الكاملة التي تعمّ النتاج الشعري العربي كاملا بما يجعل ذلك ظاهرة مؤثرة... لكنّ شيوع الروح الانتقائية التي تعزل أدلة مفردة من سياقاتها، واستنباط نتائج ثابتة ونهائية منها يعيدنا إلى النقد التقليدي الذي دعا الغذامي إلى تخريبه وإزالته"[64]، وبهذا فقد سمح الغذامي لخصومه إلى الظفر بنقاط ضعف أطروحاته، والعمل على دحض ما يروّج له من أفكار، ومن هؤلاء منظّر الحداثة العربية أدونيس (علي أحمد سعيد) الذي سُئل عمّا روّج الغذامي بشأنه، فقال: "إن الغذامي لا يزال يشتغل في الإطار التقليدي، الغذامي لا يميز بين الأنا الفردية والأنا التي لها بعد إنساني أو أنا إنسانية وهو مخطئ في موقفه في مسألة النسق، ولهذا السبب أحس أن الغذامي إمام جامع وليس ناقدا"[65] من جانب آخر، فإنه من المبالغة والزلل في آنٍ واحد أن ينسب الغذامي كلّ القيم الأخلاقية والسلوكية الثقافية إلى الشعراء، والقول بأنّ هذه الأمة أمة علم الشعر فحسب، "وهو علمها الذي لا علم لسواها سواه"[66] ففي ذلك تجنٍّ وتدليس ومسخ لحقيقة هذه الأمة، أمة الإسلام، أمة كتاب مجيد[القرآن الكريم]، القائل فيها تبارك وتعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[67]

وبالتالي أخلاق هذه الأمة ليست مستمدة من الشعر بحجة أنها أجادت نظمه، وليس كلّ سلوكياتها الاجتماعية والثقافية سلبية ولا تمرر إلاّ قبيحا، ثمّ أنّ الحكم المطلق بضديّة الإسلام للشعر، تنفيرا منه ودعوة إلى نبذه وفق الاستدلال بحديث أورده الناقد للرسول الكريم(ﷺ): ((لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير من أن يمتلئ شعراً))[68]، يفتقد للصدق والموضوعية ويشوّه موقف الإسلام من الشعر فالإسلام لم يطلق هذا موقفه من الشعر كليّة، وإنما عنى بذلك شعر الباطل، شعر الفساد وتخريب العقول. يقول تعالى: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ(226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ(227)﴾[69]، فلقد استثنى الله تعالى الشعراء الذين اهتدوا بالإيمان وعملوا الصالحات وتكلموا بالحكمة والموعظة والآداب الحسنة وانتصروا للإسلام، يقول الرسول (ﷺ): ((إنما الشعر كلام، فمن الكلام خبيث و طيب)) وقوله (ﷺ): ((إنّ من الشعر لحكمة))...

4. الانغماس في النقد الأيديولوجي:

لعلّ أبرز عيب في النقد الثقافي كما أكّد صاحبا دليل الناقد الأدبي، "أنه محدود منغلق على مجتمعه الثقافي وعلى ذاتية منشئه. أضف إلى ذلك أنه نقد أيديولوجي دائما وأبدا"[70]، فالنقد الموجّه من الذات الناقدة ثقافيا ليس نقدا بريئا، فأحكامه متحيزة تملي مواقف سياسية أيديولوجية حتمية ومسبقة، أوقعت النقد الثقافي في ذاتية مطلقة وأبعدته أشواطا عن تحرّي الموضوعية، و تلك في الحقيقة غاية الدراسات الثقافية التي ظلّ يحرّكها برنامج سياسي راديكالي لا يثق بالسلطة ولا

يشعر بالراحة اتجاهها، وهي تناضل للكشف عن المصالح والإيديولوجية الكامنة وراء العمليات المزعومة الناعمة التي تديرها معظم الأشكال الثقافية"[71]

وخطاب النقد الثقافي لدى الغذامي لا يكاد يبتعد عن هذه الميزة، بل لقد اتسمت العديد من أحكامه بطابع أيديولوجي خطير، فعندما ينعت الشعر العربي بالجرثومة النسقية المستترة بالجماليات ويصف الحداثة الشعرية بالرجعية، فيجعل من المتنبي شحاذا، ويجعل من أدونيس ونزار قباني رجعيين ومن صدام حسين نموذجا للذات السياسية الطاغية التي استفحلت بسقية الشعر وتشعرنت بقيمه يتبيّن لنا أنّ الغذامي قد حشر نفسه في دائرة تعميمات أيديولوجية تقليدية، وأطلق على الأمر أحكاما خطيرة، عقيمة النقاش، وبالتالي كما يقول(سعيد علوش) فالغذامي:"قد بذل مجهودا كبيرا لتحصيل نتائج سلفية هزيلة أسقطته في أحكام كان في غنى عنها ووضعته في وضعية لا تناسب فقيه الأدب الذي استطاع أن يجرر الكثير من الأطروحات الحداثية إلى المؤسسة المحلية بلغة الفقهاء وحذر العلماء، وبما أنّ هذه الأطروحات غير وجودية في ثقافته فهي قد استعملت كمجرد مراكب شراعية لإرضاء طموحه"[72]

وبهذا فإذا ما ظلّ همّ النقد الثقافي العربي مقصورا على التنقيب عن العيوب والبحث عن القبحيات ولم يطوّر من تصوراته النظرية وتحديث إجراءاته المنهجية، فتحظى فيه الخطابات بممارسة نقدية حيوية وقراءات متأنّية موضوعية، بعيدة عن الرؤى الفردية الذاتية الضيقة، فحتما سيجد نفسه يوما أمام طريق مسدود، وربما يكون ذلك السبيل إلى فنائه.

ختام على سبيل التركيب:

لا شكّ أنّ انفتاح الخطاب النقدي العربي المعاصر على تجربة النقد الثقافي يشكّل نقلة نوعية ونقطة انعطاف حاسمة في مساره؛ فهو قد راهن على دخول مرحلة تخطٍ جريئة، تتجاوز ما كان مؤسسا ومقدّسا إلى عالم نقدي بديل في مستوى ما يتطلع إليه الناقد المعاصر اتجاه نقد الخطابات الأدبية وغيرها؛ ذلك أنّ"العلاقة بين النقد والأدب أعمق من أن تختزل في حدود الاشتغال على دراسة العناصر التي تجعل من عمل ما عملا أدبيا، أو على المعاني المتعددة واللانهائية، فهو يمتدّ بالقدر نفسه إلى الفضاء الذي يتشكّل الأدب وكذلك الوعي به... وهو ما يقتضي وضع الأدب في سياق أوسع"[73]، وتمثّل الناقد لهذه المعطيات كلّها بداخل الخطابات المنقودة، يسهم في خصوبة قراءاته، ويرقى بنقده لها إلى"عمل إبداعي وحضاري لا يقلّ أهمية عن عملية إبداع النصوص الأدبية"[74]، شريطة أن تتمّ هذه المقاربة النقدية دائما تحت وعي علمي ومنهجي سؤالا ومحتوى، حفاظا على نجاعة النقد وقدسية الإبداع، من جانبيه الجمالي والثقافي.

الهوامش والمراجع

---

[1]- ينظر:عبد العزيز حمودة: الخروج من التيه "دراسة في سلطة النّص"، اصدارات عالم المعرفة، الكويت، العدد298، نوفمبر 2003، ص 223.

[2]- المرجع نفسه، ص 223.

[3]- طراد الكبيسي: مداخل في النقد الأدبي، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2009، ص44.

[4]- محمد بوصحابي: النقد الثقافي ورهان تموضع النص في العالم، مجلة عمّان الثقافية، أمانة عمان الكبرى، الأردن، العدد 138، كانون الأول 2006، ص 44.

[5]- عبدالله إبراهيم: النقد الثقافي"مطارحات في النظرية والمنهج و التطبيق"، بحث مدرج بكتاب(عبدالله الغذامي و الممارسة النقدية والثقافية)، تأليف مجموعة من النقاد العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2003، ص47.

[6]- ينظر: محمد بوصحابي: النقد الثقافي ورهان تموضع النص في العالم، ص 45.

Scanné avec CamScanner

6- يمثل الموضوع الرئيس للدراسات الثقافية في دراسة كل أنماط الإنتاج الثقافي في مختلف الممارسات التي تحدد الهوية (إيديولوجيا، مؤسسات، لغات، بنى السلطة...)، كما تهتم بكل النظم الخطابية وغير الخطابية بوصفها ممارسات دالة، وهذا المعنى يتجاوز أي تمثل للثقافة باتجاه ما هو رسمي أو مؤسسي فحسب، وتقدم الدراسات الثقافية نفسها بوصفها شكلا من أشكال المعرفة ومركبا من تيارات فكرية ونظرية وفنية متنوعة المرجعيات، إذ تضم جميع الأصوات التي تشتغل في تلك التيارات والتحليل وتشيد منهجيات تنصب على الممارسات والخطابات في تنوعها وتعدد أشكالها، ولذلك فهي تمثل أيضا شكلا من أشكال الرد على المناهج النقدية الحديثة المسكونة ببناء النماذج والكليات والأنساق المغلقة أو ما يسميه "ديفيد هاوتون" النظرية الأدبية وحدود مقاربتها الأكاديمية الصارمة. ينظر: إدريس الخضراوي: السرد موضوعا للدراسات الثقافية "نحو فهم لعلاقة الرواية بمقاومة السيطرة والمقاومة الثقافية" مجلة تبيّن للدراسات الفكرية والثقافية، إصدار المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ع07، شتاء 2014، ص111-112.

7- ينظر: إدريس الخضراوي: المصدر نفسه، ص109

8- ينظر: عبدالله إبراهيم: النقد الثقافي "مطارحات في النظرية والمنهج و التطبيق"، ص41.

9- ينظر: محمد الويش: ماهية النقد الثقافي: http://aljsad.org/showthread.php?t=149677

10- طراد الكبيسي: مداخل في النقد الأدبي، ص45- 46.

11- ينظر: عبدالله إبراهيم: النقد الثقافي "مطارحات في النظرية والمنهج و التطبيق"، ص41.

12- ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، 2000، ص73.

13- ينظر: طراد الكبيسي: مداخل في النقد الأدبي، ص43.

14- ينظر: ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، ص73.

15- جميل حمداوي: نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، إصدار شبكة الألوكة http:// www. alukh.net

16- طراد الكبيسي: مداخل في النقد الأدبي، ص44.

17- ينظر: عبدالله الغذامي: النقد الثقافي "قراءة في الأنساق الثقافية العربية"، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط3، 2005، ص32. وينظر أيضا: طراد الكبيسي: مداخل في النقد الأدبي، ص44.

*- يقصد أنطوني غرامشي بالهيمنة، ما ينهض عليه النظام الاجتماعي من علاقات تشتغل كآليات للإخضاع والسيطرة.

**- تعدّ طروحات الفرنسي جاك دريدا طفرة مميّزة في مسار النقد الأدبي في العقود الأخيرة من القرن العشرين، كونها تقدم نقدا صارما للمركزية الغربية المنغلقة وتناقضاتها، وبذلك فقد لقيت اهتماما بالغا ورواجا كبيرا بساحة النقد الثقافي.

18- عبدالله إبراهيم: النقد الثقافي "مطارحات في النظرية والمنهج و التطبيق"، ص42.

***- تطرّق الغذامي إلى نظريات شتّى مثل: ما بعد البنيوية، ما بعد الحداثة، التاريخانية الجديدة، النقد النسوي، تحت مظلّة ما أسماه (ذاكرة المصطلح) في إطار التأسيس لنظرية ومنهج النقد الثقافي ينظر: عبدالله الغذامي: النقد الثقافي، ص11-53.

19- محمد بوصحابي: النقد الثقافي ورهان تموضع النص في العالم، ص 45.

20- عبد العزيز حمودة: الخروج من التيه "دراسة في سلطة النص"، ص351.

21- عبدالله الغذامي: النقد الثقافي، ص 83-84.

*- يتولّد العمى الثقافي في نظر الغذامي لمّا يفقد النقد الأدبي القدرة "على تمييزه بين الجمالي المجازي من جهة، وبين العلامات الثقافية من جهة ثانية، وتكتفي الممارسة الأدبية بالتذوق الجمالي متعامية عن عيوب الخطاب ومشاكله النسقية" -- عبدالله الغذامي: النقد الثقافي، ص247.

22- المصدر نفسه، ص08.